لغز القطة والعصا الخشبية

-الشمس مُبتهجة اليوم ، كم هي رائعة !! إنها تُحفزني للممارسة المشيّ على الشاطئ

بهذا حدّث خالد نفسه ، ذلك الشاب الثلاثيني ابن العائلة الثريّة ،الذي كانت هوايته السفر ..كما من عادته الهروب من ضغوط الحياة إلى جزيرة بعيدة ، حيث يبقى هناك وحده مع الشمس والشاطئ وقد ارتدى في هذا اليوم ، قميصاً خفيفاً وبنطالاً قصيراً .. ثم ربط حبال حذائه الرياضي وخرج من غرفته .. ومشى حوالي ساعة على الشاطىء القريب من الفندق ، قبل ان يتوقف ليأخذ قسطاً من الراحة ..

وهنا !! لفت نظره قارورة بداخلها ورقة ، يراقصها الموج يميناً ويسار . اقترب منها ونزع الغطاء عن الفوهة ، ثم سحب الورقة وشرع في قراءتها .. وكان فيها: اتاني اتصال ذات يوم .. ففتحت جوالي وقلت : – الو!! .. آه ! أهذه انتِ يا أمي ؟! .. كيف حالك ؟

فباغتتني دون أن تُلقي التحية :

-هند !! ألم أقل لك ان لا تُغضبي حفيدتي .. فهي لطالما شكت لي موافقتك لإسلوب والدها الصارم ! لكن ليس إلى حدّ أن يمنعها من شراء قطة ! ..على الأقل ، حاولي ان تقنعيه انتِ .. أليست ابنتك هي أيضاً ؟!!

-امي ..انت تضخّمين الموضوع ! فالقصة هي..

-مقاطعة بعصبية : اسمعي يا هند !! انا لم أتدخل حتى اليوم .. لكني حقاً ضجرت من زوجك المُعقّد ! يعني جُلّ ما تمنته حفيدتي هوقطة صغيرة .. فلماذا يصرّ على رفض طلبها البسيط ؟!

-ليس مُعقّداً امي ، هوفقط حريص .. هذا كل شيء

وهنا دخلت صغيرتي المطبخ ، وهي ترفع كفّها مع توجيه سبابتها الصغيرة نحوي ، واضعةً يدها الأخرى على خصرها .. وقالت لي مهدّدة :
-ماما !! سأسحب منك الهاتف .. الم تقولي انك ستحضرين لي الشوكولا الساخنة ، فأين هي ؟!

فقلت وانا ابتسم من تعابير وجهها الغاضبة:
-أوه ! لقد نسيت .. لحظة واحدة ... امي !! مضّطرة ان اذهب الآن ، سأكلّمك لاحقاً .. سلام

مُقدمة لطيفة لمشهدٍ أول من فيلمٍ عائلي ، أليس كذلك ؟ بالحقيقة هذا ما شعرت به ، وأنا أتذكّر بداية حكايتي الغريبة..

فأنا هي والدة تلك الطفلة ، يا قارئ رسالة القارورة .. لكن رجاءً ، أتوسّل إليك .. اقرأ قصتي حتى النهاية

انا أبلغ الخامسة والعشرين من عمري .. ولي فترة طويلة أعاني من..... اووه ! حقاً لا ادري كيف سأبدأ قصتي ! اظنّ من الأفضل ان اقصّها عليك منذ البداية

أنا هند ..متزوجة ولديّ طفلة جميلة ذات الست سنوات ..كم كُنت أشعر بالإمتنان من حياتي البسيطة وأسرتي الصغيرة ، حتى ذلك اليوم الذي بدا لي حديث أمي مُقنعاً : بأن شخصيتي ضعيفة مع زوجي المتسلّط ،علماً بأنني لا أراه مُتسلطاً ..لكنها دائماً تحاول اقناعي بذلك !

المهم .. في عصر ذلك اليوم .. عاد زوجي من العمل ، فاستقبلته بملامح مُعتصرة وكأني أعاني من مغصٍ ما ! كم انا سيئة في إظهار غضبي ، فلم أعرف مطلقاً كيف اتسخّط عليه !

وبدوره اقترب مني ، وقال بصوتٍ قلق : ما بالك عزيزتي ، هل تشكين شيئاً ؟!

كم راق لي ذاك الشعور ، حين اظهر اهتمامه .. وسرعان ما عادت ملامحي الطفولية ، فاخفضت رأسي كالطفل الخجول المُكابر ، الذي يُخفي فرحته وقلقه معاً .. وقلت له:

-لا شيء .. لكن ابنتك اتعبتني من الحاحها .. فهل يمكنك اعادة التفكير بشأن القطة ؟

فردّ عليّ : بأنه سيُفكّر بالأمر

في اليوم التالي .. ذهب زوجي لزيارة والديه ، لكنه عاد سريعاً ! وهويحمل بين يديه قطة تموء بألم ، وقد تلطّخ قميصه بدمائها .. وقال لي بقلق :

-هند !! ساعديني .. لقد دهستها يا هند !
فذهبت مُسرعة وجلبت شنطة الصيدلية

وصار يحاول زوجي وقف نزيفها ، وهو يقول :

-المسكينة ..احتمت تحت سيارتي من برد الشتاء ، لم تظن أن ملجأها سيكون حتفها ! .. اووه اللعنة !! لا يمكنني وقف النزيف ..عليّ ان آخذها للبيطري

ثم أخذها للطبيب البيطري .. وبعد عودته ، طلب مني أن أعتني بها حتى تتحسّن .. فقبلت ، رغم قلقي من تعلّق ابنتي (لتين) بها ..

يعني ، هي تظلّ قطة شوارع ! رغم فحص الدكتور لها ، وأخذها للقاحات اللازمة .. بالإضافة لكونها جميلة بلونها الأبيض ، الذي يكتسي فروها الناعم

وقد صدق حدسي وتعلّقت بها صغيرتي ..
لذلك قرّر زوجي مكوثها بيننا ، من دون أخذه لرأيّ !

ومرّ اسبوعان ، وعدم ارتياحي لها يزيد .. ربما لشعوري بأنها خطفت ابنتي مني ،فقد اعتدت على سماع حكاياتها الخيالية ، بل كنت أنا فضاها الحرّ

بعد مرور شهر .. وبعد خروج زوجي للعمل ، غلبني النعاس ..لكني قاومته فأنا لا أريد النوم ، حتى تنام لتين اولاً ، لأحتضنها ويهدأ قلقي من تواجدها الدائم مع قطتها ..

واذّ بها تأتيني مُسرعة : ماما !! أريد منك أن تشتري لي عصا فضحكت : هل رأيت إعلان لُعبة في التلفاز ؟

فأجابتني بالنفي ، فقد أرادت عصا من نجّار الحيّ .. ايّ مجرّد خشبة

فسألتها في أيّ حاجة تُريديها ؟

فقالت : بأن القطة (رينا) هي من طلبتها ، لتحوّلها لها إلى عصا سحرية !

فضحكت من خيالها واحتضنتها وقبّلتها ، ووعدتها بجلبها بعد استيقاظنا وذهابنا لزيارة امي

وفي نفس اليوم الذي اشتريت لها العصا وعند الساعة الثانية ليلاً ، استيقظنا أنا وزوجي على صوت إنفجار بركان ! .. لا !! لا يوجد بركانٌ هنا.. ربما كان دويّ زلزال !

فذهبنا فزعين ، خاصة بعد ان علمنا ان مصدره قادم من غرفة لتين .. وركضنا إليها ، لكن ابعدتني قوّة خفيّة أوشيء يشبه الرياح لكنه بلا صوت ولا غُبار ، فأسقطتني اكثر من مرة!

وحاولت النهوض بالصعوبة .. ولاحظت بأن زوجي استطاع دخول الغرفة ، الاّ ان الباب انغلق خلفه بقوة!

وهنا !! أُغمي عليّ .. ولا ادري كم مضى من الوقت ، قبل ان استيقظ على صراخ زوجي الهستيري القادم من الشارع!

في تلك اللحظة ، كان عليّ الإختيار بين اللحاق بزوجي ، اوالذهاب لإبنتي ! فقد كان صراخ زوجي لا يطمئن بخير ، لكن ربما هوفي الخارج يطلب لنا المساعدة

لذلك اكملت طريقي نحوغرفة ابنتي ، رغم اصطدامي بذلك الفراغ أوالهواء العاصف ، أيّاً كان هذا الشيء!

وبالنهاية مررّت من خلاله بسلام ، وفُتح لي الباب اخيراً !! لكني لم أعرف لأيّ مكان دخلت .. فهذه ليست غرفة ابنتي!

فقد تبدّل طلاء غرفتها الوردي بجدار .. لا !! هوليس جداراً ، بل أشبه بفضاءٍ واسع لا حدود له!

دقّقت النظر بعيني ، فرأيت نجوماً حمراء مُتناثرة .. وحقاً لا أدري إن كانت نجوماً ، ام ماذا بالضبط ! لأني نظارتي كُسرت ، حين اسقطتني تلك الرياح الخفيّة !

فاستمريت بالبحث بنظري الضعيف عن ابنتي ، فرأيت شيئاً أبيضاً يُنير من بعيد ، وتكثر من حوله النجوم الحمراء .. وكنت كلما مشيت في اتجاهه ، اسمع صوت ضحكات!

ففرحت وقلت في نفسي : أجل !! الحمد لله .. إنها ضحكة ابنتي فأخذت أجري وأجري نحوالنور ،لكن المسافة ظلّت نفسها ولم أقترب منها إنشاً !

لكني لم ايأس وظللّت أركض ،حتى خارت قوايّ .. فجثوت وأخذت أزحف ..

لا أعرف كم يوماً مضى وأنا أمشي هناك ! كم أشعر بالعطش .. هل يا ترى سأموت هنا ؟ أين هي والدتي الآن ؟ وزوجي (كريم) ؟ والجيران ؟ الم يتصل احد بالإسعاف بعد ؟ !

لا أعرف كم مرة نمت وصحوت ،لأُعود واتابع الزحف نحوالمجهول

يبدوأني سأموت هنا .. لكن لا بأس !! يكفيني سماع ضحكات ابنتي المستمرة .. تبدوخاتمة حسنة لحياتي.

وفي هذه الأثناء .. تراءى لي فوجاً من النجوم الحمراء تمشي نحوي، في ترتيبٍ عجيب وعددٍ أعجب !

لكن حين اقتربت مني أكثر ،اتضّح لي بأنها عيوناً لمخلوقاتٍ سوداء بأعضاءٍ كثيرة !

فأردّت الصراخ ،لكن لم يخرج ايّ صوت من جوفي .. يبدوأنني فقدّت النطق! لكن فزعي من منظرهم المرعب بثّ الحياة في جسدي الميت ! فاستندت على يديّ ،لأهرب ولولمسافة قليلة ..

لكن أوقفتني رؤية يدٍ بيضاء تمتدّ نحوي ! فتجمّدت في مكاني ، وكأني مومياء محنّطة !

ثم تجمّعت أيدي تلك المخلوقات وابعدت اليد البيضاء عني ! ثم تجمّعوا حولها وصاروا يحدثونها بصوتٍ مزعج ، وكأنهم يعاتبوها على محاولتها مساعدتي ..

ثم تفرّقوا عنها ، لتظهر من جديد تلك اليد الصغيرة البيضاء ، فعرفت أنها يد ابنتي ..

فشددّت جسمها وضممّتها لصدري ، فشعرت على الفور !! بنارٍ تدبّ في جسدي ، فأبعدتها عنّي تلقائياً ! وتساقط فُتات قميصي المُحترق..

وفي غمرة دهشتي ، سمعت صغيرتي تخبرني : بأني لن أستطيع لمسها بعد اليوم ، إلا بشرطٍ واحد : وهو أن أُعيش مع تلك المخلوقات البشعة ، وأنضمّ إلى احدى الوظائف في عالمهم!

فأخذت أضرب نفسي كالمجنونة ، لأني لم أعتقد أن القرصة كفيلة بإيقاظي من هذا الكابوس!

فشرعت صغيرتي في البكاء ،لأنها لا تريد مني أن أضرّ نفسيلكني لم أُشفق على حالي ، بل أصبح نصف شعري بيدي ، وقد ضربت صدري حتى يأست ..ثم بكيت وبكيت ،ثم شرعت اضحك بهستيريا ..

إلى ان هدأت اخيراً ،وقلت لها : بأننا نرى الكابوس ذاته ،وسيأتي والدك لإيقاظنا قريباًفقالت لي بنبرة واثقة وحزينة : إبي لن يأتي ، يا امي ! فقد أضاع فرصة وجوده معنا ، بعد أن عجز عن المشي كل هذه المسافة

ليتجاوز الحاجز بين العالمين ، لذلك فضّل الرجوع نحوالباب الذي دخل منه.. ولهذا يا امي ، حكموا عليه بأن يعيش بقيّة عمره بلا عقل

فقلت بدهشة وغضب : اتركتهم يجعلون والدك مجنوناً ؟!!! فقالت بلا مبالاة : هذا كان اختياره يا امي ، لكنك وصلتي إليّ رغم كل ما عانيتيه

فسألتها بعصبية : ولماذا كل هذا ؟!! أهوبسبب تلك القطة اللعينة ؟ أم بسبب عصا النجار البائس ؟!

فقالت بسعادة : الإثنان !! فقطتي (رينا) استطاعت بتلك العصا أن تجعلني أتحدّ معها ، لنهرب الى عالمٍ أجمل .. انظري اليّ جيداً يا ماما ، الم تلاحظين ؟ !

ثم اقتربت مني اكثر ، ودنت يدها من عيوني الضعيفة .. فإذّ بي أرى فروا أبيضاً يغطي جلدها ، ومخالب في رأس أنامل قدميها البشرية الصغيرة

فنفرت منها ! وكدّت اهرب عائدة من الإتجاه الذي قدمت منه ، الاّ انها اوقفتني بصوتها الطفولي النديّ قائلة:

-ماما لا تتركيني !! سأفتقدك ان بقيت هنا لوحدي .. رجاءً امي ابقي معي هنا فعدّت إليها مرغمة .. وبعد ان فكّرت كثيراً ، تشجّعت على الموافقة بانضمامي لعالمهم الغامض ..فكيف لأم أن تهجر ابنتها ، ولوكانت تحوّلت الى مسخٍ بشع ؟!

وما ان أخبرتها بموافقتي ، حتى صدر منها صوتاً بشعاً قائلاً:
-وظيفتك في عالمنا : هي أن تقومي بتنظيف شوارعنا جيداً!!

فارتجفت من الخوف ، وعرفت أن نصفها (القطة) تودّ الإنتقام مني ، لنعتي لها سابقاً : (بقطّة الشوارع) لكن كيف تناست بأني انا من اعتنيت بها وأطعمتها .. كم هي قطة حقودة!!

ثم عاد صوت ابنتي من جديد ، وقالت لي : ماما لا تخافي !!

فقلت بصوتٍ مُرتجف ، دون أن أرفع بصري إليها : صغيرتي ..عالمهم مظلم وغامض وأشكالهم المخيفة ، وحتى نصف جسمك الغريب ، كل هذا يُخيفني جداً

فأشارت إلى مكانٍ بعيد ، ابيض ومضيء .. ثم قالت:
-انظري الى هناك امي ..تلك البقعة هي مملكتهم ..إذا أتيت معنا ، ستتبدّل أشكالنا المخيفة إلى مخلوقات بجمالٍ ملائكي ..فهذه الأشكال المخيفة التي ترينها الآن ، ما هوالا تدبير وقائي لإخافة الغرباء ، كيّ لا يجرؤ احد على اقتحام المملكة ، هذا ما اخبروني به سابقاً

فاطمأننت لكلامها ، وقبلت بعرضهم .. فارتمت ابنتي في حضني .. وهذه المرة لم اشعر بتلك النار ، فحضنتها بدوري بقوة وشوق ..

لكن الذي ضايقني ان اشكالهم ازدادت بشاعةً في النور ، فقد كذبوا عليّ وعلى ابنتي!

وكم لاقيت من سوء المعاملة هناك بسبب عنصريتهم المقيتة .. ممّا جعلني بعد مدة ، اقبل مُرغمة بأن يحوّلوا شكلي الى نسخة منهم!

وهذه هي نهاية رسالتي لك ، ايّها القارىء

شعر خالد بالحُزن بعد انهائه لرسالة القارورة .. وتساءل في نفسه : إن كانت فعلاً قصة حقيقية ؟ !لكن قبل ان يعود لغرفة الفندق ، شعر فجأة بدوارٍ فظيع .. فسقط مغشيّاً عليه!

وبعد ساعات استيقظ ، ليجد نفسه أمام مخلوقٍ بشع!! فأصابته الدهشة ! وتسمّر في مكانه وهو يهمس لنفسه- : إنه فقط تأثير القصة ! هذا مُجرّد حلم .. حديث نفسي صوّر لي هذا الحلم .. نعم !! أتذكّر أنني سقطت عند الشاطئ ، سيأتي احدهم الآن ويوقظني!!

لكن المخلوق البشع لم يكن سوى هند صاحبة القصة ، حيث اقتربت منه ..وقالت له بابتسامة خبيثة:

-شكراً لك ايها الشاب .. يبدوأن اضافتي للمشهد اللطيف في أول القصة ، جعل منك صيداً سهل ..

آه !! لا تعلم كم قارورة ألقيتها قُرب الشاطئ ، لكن عدم شغف الحمقى الذين سبقوك لإكمال قصتي ، منعني من الخلاص من لعنة الوظيفة الشآقّة

لكني ابشّرك !! فأنت منذ هذه اللحظة ستكون ، عامل النظافة البديل لي .. فمرحباً بك بعالم الوحوش!!